السلام العالمي والاسلام

للكاتب الراحل الأستاذ سيد قطب

للأستاذ محمد فياض

بينما تتصارع الشيوعية والديمقراطية من جهة ، وبينما تتصارع شعوب تدين بالإسلام مع كلتا الكتلتين من جهة أخرى ؛ يقفز من بين الشعوب الإسلامية دعاة إسلاميون وهيئات إسلامية ، فيتقدمون الصفوف ، ويمسكون بدفة التوجيه فى محاولات جبارة ليحولوا وجهة الكفاح الشعبي فى الرقعة الإسلامية ، إلى كفاح إسلامى يستعصى على الفكرة الشيوعية ، ويتمرد على دعاة الديمقراطية ، ويتجه إلى الإسلام . . ليكون القوة الإسلامية الأولى ، التى انبعثت من بطن الصحراء ، لتديل دولة الفرس الوثنية ، وتزيل دولة الرومان الظالمة ، فتبلغ رسالتها ، وتؤمن رقعتها ، وترفع الظلم عن كل إنسان

وفى غضون ذلك كله ، ومن بين صفوف قادة الفكر ، ودعاة الفكرة ، ومن بين أبراج الأدباء والكتاب فى بلادنا ؛ رأينا صاحب قلم جرىء ، ينزل من بين الأبراج ، ليبرز خلال الصفوف الشعبية ، متجردا ، مخلصا ، للكفاح . . الكفاح المرير بشمه وقيوده ، فيضرب هنا ، ويضرب هناك ، ضربات متتاليات متواليات ، فى ميدان الفكرة الإسلامية ، وفى ميدان الفكرة الاشتراكية . وفى ميدان الشعوب . . لتأكل . . لتلبس . . لتعى . . لتتحرر . لتعيش عيشة الإنسان !!

وما نظننا بعد فى حاجة إلى الإشارة لصاحب هذه الضربات الحرة السافرة ، فنحن نعرف فيها الأستاذ سيد قطب ، كما نعرفه بها . والجدير بالإشارة : أن الفكرة الإسلامية تحت ذبابة قلمه بدت لنا مكبرة، ضخمة ، واضحة ، فى كلياتها وجزئياتها ، فى مباحثها وأقسامها ؛ وهذه حالة جديدة ، وظاهرة فريدة ، فى «الفهم الاجتماعى» للفكرة الإسلامية، منذنشأت إلى الآن . . فكل ما كان من فهم الفكرة الإسلام ، لم يعد تناول بعض جنباتها فى شطحات مفككة ، بين خطأ وصواب ؛ أما سيد قطب فكان من الإسلام فى عصرنا الحاضر ، بمثابة العدسات المجمعة الكبيرة . . المفرقة الموزعة ، أو كان بمثابة المرآة الضخمة التى انعكست لنا فيها الفكرة الإسلامية ، واضحة ناطقة ، صافية معقولة ، جذابة منطقية

ولعلنى لا أعدو الواقع ، حين أقول إن سيد قطب لو قدر له فى أسلوبه ، طبيعة السخرية والتورية ، والإيحاء والكناية ؛ لفاق تأثيره تأثير « فولتير » فى هزه للنفس البشرية ، من داخل لا من خارج ، وفى إشعاره لها بالكبت والضغط . . وإذن لاحتل سيد قطب فى حياته وفى عصره مكانة لا تقل عن مكانة « فولتير » فى التاريخ . . ولدى المؤمنين بالحرية والإخاء والمساواة بعد مماته . ولكننى أعتقد أن سيد قطب ينأى بنفسه عن ذلك الجانب ، ليوائم بين كتابته وحقيقة ما يكتبه عن الفكرة الإسلامية ، التى لا تعرف الألغاز والمعميات ، والتى لا تهرب من الضوء . وأعتقد أيضا أن الجامع مع ذلك بينه وبين «فولتير» هو أن كليهما فى عصر وبلد ملئ بالقلق ، ملئ بالتطلع ؛ وأن كليهما مخلص لفكرته ، مؤمن بها فى ميدانه ؛ وأن كليهما متأثر بعصره ، شديد التأثير فى زمانه وما بعد زمانه . . رغم ما بينهما من تفاوت فى المنهج والمنحى والطريقة ، ورغم ما بين فكرتيهما من تباين فى الأسس وفى الأصول

وقد لا يقصر بى التعبير عن الواقع حين أقول : إن طبيعة الأستاذ سيد قطب ككاتب ، طبيعة مرنة لينة، تستجيب وتعى . . وتتأثر وتؤثر . . فى أسلوبه بساطة محببة أليفة ، وسلاسة طبيعية غير متكلفة ، وفى أدائه دقة الكليات والجزئيات . . وفى تصويره براعة التناسق والتوازن ، والتعادل والانسجام . وإنك لا تكاد تقرأ الصفحة من كتابه ، أو النهر من مقاله ، حتى تقسم بكل مقسم ، أنك قد لمست من خلال السطور، رفرفة الروح ، وحرارة العقيدة ، ونضارة الفكرة، وأن سيد قطب يكتب حين يكتب ، بكل جوارحه ومشاعره وأحاسيسه ؛ وأنه يفنى فيما يكتب ويخلص له بسطر ، وأنه يتكلم من خلال السطور ، فى قسوة ، وفى رحمة . .

بيديه ورجليه ، وعقله وعاطفته

وهذه واحدة أخرى نذكرها فى إجمال عن طبيعة مؤلفاته الإسلامية ، وطريقة عرضها : بعد أن قدمنا طبيعته ككاتب ، فى أسلوبه ، وفى تصويره ، وفى أدائه :

قرأت الأستاذ سيد قطب فى ميدان الفكرة الإسلامية ، خمسة كتب : التصور الفنى فى القرآن . والعدالة الاجتماعية فى الإسلام ، ومشاهد القيامة فى القرآن، ومعركة الإسلام والرأسمالية، وأخيرا هذا الكتاب الذى بين يدى الآن « السلام العالمى والإسلام » وقد عرفت عن هذه المؤلفات عدة أشياء ؛ تتركز فى دقة التقسيم ، وجودة العرض ، والقدرة على الاستنباط والاستنتاج وعمق البحث وجدته ؛ وتتمثل فى بساطة وسهولة وسلاسة تواتم سائر القراء من جميع الطبقات ، رغم ما بها من تجنيح وتحليق ، فى تقسيماته واستنباطاته واستنتاجاته ؛ على جبهة مليئة بالعديد الدقيق من مألوف ألفاظ الاقتصاد والمنطق والطبيعة . وعرفت أيضا لمؤلفاته طريقتين وطرفين : إحداهما ، هادئة كالسطح الساكن، وأخراهما متأججة ثائرة لا تلوى على شئ . . الطرف الأول فى كتابه العدالة ، والثانى فى كتابه المعركة ؛ وبين الكتابين وبين الطريقتين ، أوساط عديدة تقف بين الوجه الهادى للنفس المتأججة ، وبين الوجه الناضب للنفس الثائرة، فى مكان خاص بين الوجهين والطريقتين، وكتاب المؤلف الأخير أقرب إلى الهدوء وإلى العدالة منه إلى المعركة ، وإن كان الباب الأخير فيه ، يميل إلى أن يكون وسطا متوازيا فى عرضه وأدائه بين الكتابين ، وبين الطريقتين

ولقد كان بودى أن أتحدث عن كتبه كلها ، لما أكنه لها ولمنتاجه وطريقته من تقدير وحب ، لولا أننى فى مجال الحديث عن كتابه الأخير ، أو هذا هو ما قرنه على الاعجاب والحب . ولا أعتبر أن ثمة اعتبارا من حبى وإعجابى يقف بينى وبين أن أقول للأستاذ سيد قطب على رؤوس الناس ما يود سائر القراء قوله له: لقد وضعت لبنات جديدة فى (مكتبة القرآن) حتى كتابك (مشاهد القيامة فى القرآن) رغم أن جودة العرض وحسن التقسيم قد هربا منه هروبا لم يخلف وراءه سوى مستنبطات ومستنتجات . . الحق أنها تستأهل الاعجاب والتقدير . والحق أنها تستأهل أن يكون بجوارها جودة العرض وحسن التقسيم ، لتكون لها القيمة المنشودة ، والفائدة المرجوة

وعسير على الباحث ، كما يقول المؤلف فى كتابه « السلام العالمى والإسلام — « البحث فى أى حقل من حقول الإسلام ، دون الإلمام بفكرة الإسلام الكلية عند الكون والحياة والإنسان . . فهذا الدين لا يعالج مشكلات الحياة أجزاء وتفاريق . . إنما هو يرجعها كلها إلى نقطة ارتكاز واحدة . . مردها إلى فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان » وفكرة السلام فى الإسلام « تتصل اتصالا وثيقا بطبيعته وبفكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان » ومن أجل هذا يعقد المؤلف بابا خاصا بعنوان « طبيعة السلام فى الإسلام » ويؤكد فيه أنه يجب أولا وقبل كل شئ ، ربط فكرة السلام بفكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والإنسان رغم أنها ليست من موضوع كتابه هذا كما لم تكن من موضوع العدالة . والمؤلف يسهل ذلك الباب بقوله : « إن فكرة السلام فى الإسلام فكرة أصيلة عميقة » ثم يمضى بربط فكرة السلام بفكرة الإسلام الكلية ، إلى أن يقول : « من هذا التناسق فى طبيعة الكون ، وفى ناموس الحياة وفى أصل الإنسان . تستمد طبيعة السلام فى الإسلام . . فتستند إلى أصل أصيل عميق، ويصبح السلام هو القاعدة الدائمة ، والحرب هى الاستثناء » . ولكن الإسلام « يستبعد الحروب التى تثيرها العصبية العنصرية » أو « العصبية الدينية - بمعناها الضيق . . كراهية الأديان الأخرى » كما « يستبعد الحروب التى تثيرها المطامع والمنافع : حروب الاستعمار والاستغلال والبحث عن الأسواق والخامات ، واسترقاق المرافق والرجال » ويستبعد أيضا تلك « الحروب التى يثيرها حب الأمجاد الزائفة للملوك والأبطال، أو حب المغانم الشخصية والأسلاب » . . فما هو ذلك النوع من الحرب ، الذى يستثنيه الإسلام من قاعدته الدائمة : السلام ؟

نترك ذلك للمؤلف فى كتابه ، كما نترك ما يطوف حول موضوع السلام والحرب فى الإسلام من شبهات وظنون ، ومخاوف وأقاويل

قد يسأل القارئ ، لماذا وضع المؤلف ذلك الكتاب . . ؟ ولمن يقدمه من الناس . ؟ ونعتقد أن الجواب يدلى به المؤلف نفسه فى أخريات الفصل المعقود بعنوان « العقيدة والحياة » الذى جعله مطلعا لكتابه ، حيث يجيب فى أخريانه من ثنايا قوله « ولقد كنا

تتجلى على عقيدتنا الضخمة .. أنها لا تسعفنا بالحلول العملية لمواجهة الحياة العصرية ومشكلاتها وبخاصة في الحقل الاجتماعي والحقل الدولي . فأما الحقل الاجتماعي فقد صدرت فيه عدة مؤلفات تكشف الحلول العملية التي يملك الإسلام أن يواجه بها الحياة .. وأما الحقل الدولي ، فربما كان العمل فيه قليلا ، ولم تشرح هذه الناحية بعد شرحا كافيا ، وأمامنا اليوم مشكلة السلام العالمي التي تواجهها البشرية جميعا . ونواجهها نحن ضمنا . فهل الإسلام فيها رأي ؟ ولها عنده حل ؟

هذا الكتاب كله هو الإجابة التفصيلية على هذا السؤال ..

وفي سبيل هذه الإجابة ، وفي سبيل تحديد « طبيعة السلام في الإسلام » وتفصيلها ، يقيم المؤلف هذه الطبيعة ، ويشيد ذلك السلام ، ويبني كتابه على عمد أربعة « سلام الضمير ، وسلام البيت ، وسلام المجتمع ، وسلام العالم » فبدون واحد من هذه العمد لا يتحقق السلام في نظر الإسلام ، بل ولا يستقيم للآخر موقف ، ولا يستقر له مكان « فالإسلام يبدأ محاولة السلام أولا في ضمير الفرد ، ثم في محيط الأسرة .. ثم في وسط الجماعة .. وأخيرا .. يحاوله في الميدان الدولي بين الأمم والشعوب »

وفي سبيل « سلام الضمير » حيث « لا سلام لعالم ضمير الفرد فيه لا يستمتع بالسلام » وفي سبيل « سلام البيت » حيث أن « الفرد الذي لا يستمتع بالسلام في بيته » لن يعرف للسلام قيمة ، ولن يتذوق له طعما ، ولن يكون عامل سلام ، وفي أعصابه معركة ، وفي نفسه قلق ، وفي روحه اضطراب » وفي سبيل « سلام المجتمع » حيث « تتشابك المصالح ، وتتزاحم الدوافع ، ويكثر الشد والجذب ، والأخذ والعطاء » وفي سبيل « سلام العالم »

... في سبيل كل ذلك

يستعرض المؤلف الوسائل والأسباب ، ويستكشف السبل المؤدية في الإسلام إلى (سلام الضمير ، وإلى سلام البيت ، وإلى سلام المجتمع ، وإلى سلام العالم) على قيود النظر الإسلامية إلى الفرد والجماعة « فالفرد والجماعة في الإسلام ليسا عدوين ولا ندين ، إنما هما خلية واحدة في صورتين : الفرد فردا ، والفرد مشتركا في جماعة ، وقد نشأت هذه الصورة من طبيعة الإسلام واستمداد شريعته من الله لا من إنسان ، فالفرد لا يشرع للجماعات في الإسلام ، والجماعة لا تشرع للأفراد ، إنما يخضع الفرد ، وتخضع الجماعة ، لذلك القانون الإلهي الذي يرعاهم جميعا ، وحينما يتقرر ذلك يصبح أمن الفرد الشخصي هو أمن الجماعة الكلي ، وأمن الجماعة العام هو أمن الفرد الخاص ، بلا تعارض بينهما ولا انفصام

ثم يعقد المؤلف فصلا آخر أو بابا ختاميا بعنوان (والآن ...) يتساءل فيه من طريقنا نحن الأمة المسلمة .؟ وكيف نواجه مسألة السلام العالمي بعقيدتنا الإسلامية . وكيف نتصرف في المجال الدولي طبقا لهذه العقيدة ، وما واجبنا تجاه الحياة .. وتجاه الإنسانية ... وتجاه أنفسنا ؟ وقبل أن يجيب الأستاذ يأخذ في استعراض الحالة الدولية ، بما يقوم فيها من صراع ، وبما يشتجر فيها من مذاهب ، حتى يخلص بنا إلى الإجابة عن هذه الأسئلة ، وإلى (طريق الخلاص) الذي تترك كتابه يتحدث عنه في واقع منطقي يعلو على الشك وعلى الجدال

ذلك هو كتاب الكاتب الداعية الأستاذ سيد قطب ، حاولت جاهدا أن أجمل فكرته للقراء في تلك السطور

وبعد فالكتاب يقع في ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويتمتع بكل الخصائص الممكنة لمؤلفه ، أما ما حدث فيه من تكرار لبعض ما ورد في كتابه العدالة ، مما قد يؤدي إلى إذهاب بعض جدته ، فلعل السبب هو التشابك والتماسك في كليات الفكرة الإسلامية وجزئياتها ، تشابكا يرغم الباحث على التطرق لكل ما يجاور مبحثه المطروق . والكتاب أيضا كتاب فريد في بابه ، فريد في شموله وتكامله ، وما نزال في انتظار كتابه التالي (نحو مجتمع إسلامي) متحضر ، لأنه (كمحاولة للقيام بدراسة وافية لمقومات المجتمع الإسلامي ودستوره كما يمكن أن تكون في القرن العشرين) يعد أقرب الخطوات الفكرية والكشفية لطريق العمل الجدي المنتج . والوقت السانح للوحدة الإسلامية ، فإلى ذلك الحين ... وإلى ذلك الحين

محمد فياض